

اللاعنف في فلسطين

الدكتور ناصر اللحام

وكالة معا الإخبارية

فلسطين 2012

للحديث عن اللاعنف في فلسطين، علينا أن نعرف أولاً اذا كانت هذه سمة أصلية في المجتمع العربي أو أنها مجرد سلعة مستوردة من الثقافات الاخرى. فقد تنوعت الثقافات التي توالى على تاريخ المجتمع العربي، فتمازجت الثقافات في ذهن المواطن، واختلطت الحروب بالقيم بصراع البقاء بالمفاهيم المختلفة من ثقافات سامية وحامية وعربية وسومرية وبابلية واشورية وفينيقية وكلدانية واكادية وامورية وكنعانية وبربرية وافريقية وأسيوية .

وهما أن المجتمع هو تآلف معقد يشمل المكان والبيئة والسكان والتنظيم الاجتماعي والمؤسسات--- متفاعلة فيما بينها ومع المجتمعات الاخرى عبر التاريخ فان المجتمع العربي يبدو مجتمعاً شديداً التنوع، انتقالي، يتجاوز الماضي والمستقبل، الشرق والغرب في آن واحد .

والمجتمع العربي منكميء على جذوره باسم الاصاله، وسلفي تقليدي غيبي في منطلقاته وفي نفس الوقت هو مستقبلي متجدد وعلماي متحدث في تطلعاته. وهو مركزي متصل بالعالم اتصالاً وثيقاً وفي نفس الوقت هو مجتمع هامشي بين المجتمعات الحديثة. وهو منفتح متغير بسرعة ومنغلق ثابت بشكل مذهل. وهو غني في ثرواته ومواقفه وفقير متخلف مهدد. وهو صامد رافض وفي نفس الوقت مسالم ومستسلم. المجتمع العربي ومنه الفلسطيني متفائل واثق بنفسه ولكنه متشائم متدن في معنوياته، متقدم ومترجع، مأساوي وهزلي حتى في أمنياته واستجاباته وباختصار فال المجتمع العربي هو تآلف كل هذه التناقضات وغيرها في عالم متناقض ويحمل صفات أكثر تناقضاً.

وطالما أن الحديث عي المجتمع الفلسطيني ، فانه لا يختلف عن المجتمعات العربية والقيم التي تحكمه هي ذاتها التي تحكم البقية واننا يجب أن نعترف بانه مجتمع يقوم تاريخيا على التصنيف الطبقي القبلي من الناحية التي تربط أواصره داخلياً ويصنف كمجتمع اسلامي موحد من الناحية الخارجية الا أنه في حقيقة الأمر يحمل صفات التبعية والتباين الجغرافي وعدم التوازن اقتصادياً .

وفي المجتمع الفلسطيني هناك الظاهر والخفي ، الظاهر هو تقديم الذات والخفي هو تقدير الذات ، فاذا سؤل الفرد أو الجماعة كيف يقيمون ذاتهم ، ستختلف الاجابة التي يقدمونها هن تلك التي يقدرونها بينهم وبين أنفسهم .

ومن أجل الحديث عن قيمة مثل اللاعنف ، علينا ان نبحث عن العلنية، وهذه غير موجودة في

مجتمع اوتوقراطي تحول الدين فيه من ثورة الى نظام الحزب الاوحد ، فهنا يرث الناس الدين وينتخبون القبيلة .

وفي الأطار ذاته يكون للاضطهاد ثلاثة اشكال ، اضطهاد الفقير ، والطفل والمرأة أما العلمانيون في فلسطين فهم اما برجوازيين أو ليبراليون غربيون أو اشتراكيون وجميعهم غربيون عن ثقافة المجتمع الذي لم يقبل العلمانية . ولا يعترفون « علانية » بأن العلمانية نظام عقلائي يتساوى أمامه جميع الاعضاء في الحقوق والواجبات ويشمل وضع السلطة في الشعب واعتبار القوانين نسبية في العلمنة نقيض القبيلة وهنا تجد الصراع السياسي في الاطار الاجتماعي وهو أخطر العقبات أمام دعاة التغيير . والصراع السياسي هنا، حاد، يحولنا الى كائنات عاجزة لا تقوى على مواجهة التحديات المعاصرة ، وهذا يجعل عند الحكام والسادة سهولة في قمع التغيير ، ولكن لنتنبه ، فهو مجتمع متباين ، وشامل ، وقادر على التعايش دون التناحر ، يعيش فيه السومريون اليهود والطوائف المسيحية والمسلمون من مختلف مشاربهم دون أزمات .

وفي المجتمع الفلسطيني يسمح لك أن تحمل رأياً، أو فكرة ، وتستطيع أن تجاهر بشيوعيتك، بشرط أن لا يصل ذلك الى مستوى التغيير ، فحينها تتحرك الموازين الثقيلة لمنعه . ليتبقى لنا الفكر التوفيقي أو الاصلاحى بحال من الأحوال للتماشي مع بحر متلاطم من « الخفي » الذي يحكمنا .

استطلاعات الرأي

ان الحديث عن استطلاعات الرأي في فلسطين من دون عامل تأثير الاحتلال على نتائجه يشبه الحديث عن منسف عربي من لحوم ... فاستطلاعات الرأي العلمية هنا تتأثر بمدى غرق وانغماس السؤال بشكل مباشر أو غير مباشروالنتائج التي أظهرتها استطلاعات الرأي فيما يتعلق باللاعنف تظهر إن بشكل أو باخر مدى رغبة الجمهور في تحقيق الانتصارات السريعة من دون خسائر كبيرة ، لكنها من وجهة نظرنا لا تعبر عن رغبة الجمهور وقناعته باساليب اللاعنف .

مثلاً في ذكرى مرور عام على حرب العراق خرجت تظاهرات عالمية في عواصم عدة تطالب بوقف الحرب ، ولم تخرج مثل هذه التظاهرات في العواصم العربية رغم أنها هي صاحبة الشأن ، وباستثناء

القاهرة لم تسجل أية تظاهرة وتفسير ذلك أن الجمهور العربي فاقد الأمل في فاعلية هذه التظاهرات التي وان وقعت فإن الانظمة ستجبرها لصالحها .

والاسباب التي تقف وراء ارتفاع أو انخفاض نسبة تأييد الجمهور للمسيرات السلمية تأتي بالاساس من موقف الخصم السياسي منها، فطالما أن العدو يسعد التظاهرات السلمية ، فإن الجمهور سينكص عنها والعكس . ولا ننسى أن اشهار السلاح في الانتفاضة الثانية كان مطلباً شعبياً للرد على المجازر التي ارتكبتها جنود الاحتلال بحق طلبة المدارس الذين خرجوا في تظاهرات سلمية أوبالحجارة في أعلى صورها .

ثم بلغت نسبة تأييد العمليات الاستشهادية وسط الجمهور الفلسطيني في بعض الاستطلاعات الى 87% وهو رقم غير طبيعي ولا يمكن أن يكون طبيعياً ، الا أنه يمكن أن يعبر عن لحظة تطلع معينة عند الجمهور ، لحظة يمتزج فيها الرغبة في الخلاص مع التوق للانتقام .

وإذا ما رغبتنا في قراءة المزيد من مدلولات الارقام ، وتأثير القرار السياسي فيها ، نجد أن مكونات المجتمع المركزية لا تتدخل هنا في هذه الارقام وهذا غريب ، وربما طفرة ، مثلاً أن السكان الفلسطينيين لا ينظرون من الناحية الدينية والشرعية الى مسألة ” اللاعنف ” بقدر ما هي نظرة سياسية .

مسيرات الشموع

لقيت النضالات السلمية (اللاعنفية) حالة من الاقبال الجيد عند الجمهور في الانتفاضة الاولى وذلك لسهولتها، ومشاركة فئات اكااديمية واسرائيلية فيها لكن الاحتلال قمعها بعنف ما أشعر الفلسطينيين بالخذلان .

وثمة جانب اخر ، أثبتته التجربة وهو أن من يستورد اسلوباً بعينه ويطبقه في بلده ولا يكون مناسباً لسماات السكان والشعب ولطبيعة العدو سيجده اسلوباً فاشلاً ولا علاقة لكثرة أو ندرة المشاركين فيه . فالفلسطينيون درسوا جيداً تجربة غاندي ، ولكن طبيعة الاحتلال وأنه يريد أخذ الأرض وافناء المواطنين الأصليين واللعب على عامل الوقت يدفع بالجمهورالى الاسراع نحو السلاح .

وحتى بعد تحرير جنوب لبنان على يد المقاومة الاسلامية المسلحة ، تمسك الجمهور الفلسطيني بالاساليب السلمية. وكما قيل (الجهاد السلمي) فجرت تظاهرة سلمية زاحفة باتجاه بوابة فاطمة الا أن الاحتلال تعامل معها بقسوة وخشونة وقتل متظاهراً فلسطينياً من مخيمات الجنوب وكأنه يثبت للجمهور الفلسطيني في لبنان أن أسلوب ” اللاعنف ” غير مجدي وغير ملائم للثورة الفلسطينية .

وقد نشرت الصفحة الالكترونية اسلام أون لاين العديد من الدراسات حول العلاقة بين الجهاد السلمي والمسلح وأسلحة اللاعنف وحاول الباحثون القول بسخرية أن اللاعنف هو ملاذ العاجزين عن الجهاد استناداً الى الآية القرآنية (فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرص المؤمنين). ولا ننسى أن أول معضلة نظرية هنا هي قول فريق بأن اللاعنف يتعارض مع الفكرة الاسلامية (الجهاد في سبيل الله)، ما يعني أن اللاعنف فكرة غير اسلامية ، لأنها تعطل الجهاد (ومن مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق). كما أن الباحثين المسلمين يرون في اللاعنف مفهوم مسيحي وليس اسلامي وهو يتعارض مع عشرات الايات القرآنية التي تحض على الجهاد المسلح حسب هذا الفريق ، كما أن الذهنية الاسلامية مفتاحها النصوص ، اي أن password العقل المسلم هو النص القرآني ، وبالتالي فإن اقناع المسلم بعدم جدوى الجهاد مضيعة للوقت .

اما نحن فترى هنا أنه يمكن مناقشة المجتمع المسلم في تعريف الجهاد وهنا مدخل التغيير .. ويصبح الجهاد المدني هو الطريق الى فهم مختلف ، أو اسلحة اللاعنف ، واذا اقتنع المجتمع بان مصلحة الاسلام هو في التحالف مع هذا الطرف فانه يقبل ذلك استناداً الى الآية القرآنية في سورة العنكبوت) والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا).

واذا تلاحظون هنا أن الاسلام يستخدم بقوة عظيمة في محاربة الاعداء الخارجيين ، ويجري تهميشه ومسحه في الصراعات الداخلية. مثلاً أن المنظمات الاسلامية عاجزة وفاشلة في الاطاحة باي نظام عربي قهري ينغص حياتهم ويسلب ثرواتهم ولا تثور نائرة الجمهور على اجهزة قمع هذا النظام فيما كان يموت ملايين العراقيين لمحاربة اشقائهم المسلمين في ايران . وهنا ضرورة الانتباه الى أن هناك جهات تستخدم الاسلام كنظرية لتصدير الازمة الى ” عدو ” يجري خلقه وتسميته لالهاء المجتمع وتبرير جميع الجرائم الداخلية .

تجربة مبارك عوض

بعد خمسين عاماً من الصراع المحتدم برز د. مبارك عوض وهو قيادي بامكانية هزيمة الاحتلال عن طريق اللاعنف . ويعتبر الرجل مؤسس حركة اللاعنف المعاصر في فلسطين على أساس أن لدى أنصار السلام من الجانبين ومن العالم العربي والأمة الدولية فرصة لتطبيق الهوة بين الاسرائيليين والفلسطينيين ، وسط الحاجة الماسة للخروج من حالة المراوحة في بركة الدماء والبحث عن منظور جديد يحقن الدماء ويحفظ الكرامة ويحقق اعادة الانسنة والتحرر .

وقاد مبارك عوض - هذا المثقف المسيحي - نضالات سلمية رائعة في الانتفاضة الاولى ووقف الى جانبه مشاهير القيادات الفلسطينية مثل المرحوم فيصل الحسيني ، ورجال الدين المسيحي والاسلامي واليهودي ونخبة المثقفين ، كبار المثقفين والاكاديميين في م.ت.ف.

رد الاحتلال كان سريعاً ، ولم يمهل التجربة فرصة للحياة ، فسارع الاحتلال لتفريق مظاهرات اللاعنف بالقوة واعتدى على المشاركين وعاقبهم وكأنهم يحملون السلاح ثم تفتت ذهن حكومة الاحتلال من حزبي العمل والليكود عن فكرة طرده من القدس ونفيه الى أمريكا بحجة أنه يحمل الجنسية الامريكية .

ويقول د. مبارك عوض عن تلك التجربة بأنها مثلث نجاحات كبيرة وزرعت بذور النضال السلمي في فلسطين .

مقارنة التجربة الفلسطينية مع الدول العربية

لا يمكن الحديث عن تجربة مشابهة للتجربة الفلسطينية ، ومع ذلك فان هناك مجتمعات عربية تشبهها تماماً مثل الاردن ولبنان مع فوارق خاصة ، ومن ناحية المشكلة أقرب تجربة للفلسطينيين من الناحية النظرية هي المشكلة الكردية ، ومع ذلك فان التجربتان تبدوان أبعد ما تكونان عن الشبه العملي .

وبما أنه لا يوجد مجتمع علماني عربي ، فاننا نستطيع القول أن هناك مجتمعات عربية قريبة أكثر

وأقل من العلمانيين مثال الفرق بين السعودية وتونس .

أما المجتمع الفلسطيني فهو قياساً من المجتمعات القريبة من العلمانيين ورغم أنه تعرض لاستخدام العنف ضده منذ مئة سنة على يد الحركة الصهيونية وأذرعها العسكرية إلا أنه صمد في امتحان الحضارة ولم ينجرف نحو الهمجية واللاعقلانية ... كما أنه حافظ على نفسه ضد العصابات المسلحة والجريمة المنظمة والفضل في ذلك يعود الى النظام القبلي الذي تحول الان الى أداة تقدمية لحماية المجتمع اخلاقياً وأمنياً.

وفي المجتمعات العربية انتشرت ثقافة الانقلاب العسكري ، وهي ثقافة يأس المجتمع من التغيير الديمقراطي وشاهدنا ذلك في دول الخليج وسوريا والعراق ولبنان وحتى تونس . أما في الجزائر فتحوّلت الثورة والنصر الى عبء فوق اكتاف الجمهور وانجرفت نحو العنف الداخلي والمذابح التي تملأ القرى والمدن .

ودأبت الحكومات المتخلفة في الدول العربية على استخدام منابر المساجد ودور العبادة لصالح الدكتاتور ما يسر سهولة قمع التغيير اما عن طريق (الفرعونية) كما في مصر أو عن طريق (الاجتماع السياسي) كما في سوريا ولبنان . ليتحول الشيخ المستخدم - والزعيم - والوطن الى كرجاج ثلاثي يمزق ظهر الشعوب دون رحمة وينهب ثرواتهم .

هناك من يقول أن المجتمع العربي مجتمع ديناميكي وفي حالة صيرورة وتكون وانتقالية وبالتالي فانه من الظلم وسمة بسمات ثابتة سلبية . هذا صحيح ، لكن وبغض النظر عن ثبات الاحزاب السياسية مثل " البعث " أو حزب الأحرار " أو " م.ت.ف " إلا أن الأهم من هذه الاحزاب ، هو القيم والتي تدير المجتمع العربي من وراء ستار . وطالما أن الاقتصاد محكوم ، ستبقى القيم نفسها ، اذن على المختلفين أن يتفقوا بأن أساس تغيير المجتمع هو التغيير الاقتصادي ، لأن قبول المجتمع لأي تغيير اقتصادي سيؤدي الى قبوله وبسهولة القيم الجديدة ، وفي حال قبل بالقيم الجديدة سيقبل باشكال التغيير وادارتها مثل الاحزاب وافكارها وادوات أخرى مثل القانون المدني والقانون التجاري الذي يتحول بعد عشرات السنين الى قيم تتناثر وسط الجمهور دون أن يدري أحد مصادرها وهي التي ستطرد الكثير من القيم السلبية والتافهة الموجودة حالياً في المجتمعات العربية ومنها المجتمع

الفلسطيني مثل الاستغلال - والسلطة القائمة على القهر والاذلال - والقمع - والكبت - والعلاقة
التغريبية - والعدوانية المبنية على الحسد والكره المبطن والنفاق- والعلاقات المزيفة التي تدعي
التشديد على الاستهلاك الاستفزازي ومظاهر الوجاهة الفارغة والتنافس السقيم المبني على الاقتناء
والمكاسب والرموز ، والازياء المتبرجة بشكل يهدم الاسرة اقتصادياً ونفسياً - أو التعالي الفارغ والتفاخر
السخيف وعرض رموز الغنى الفاحش مثل اقتناء المجوهرات بغرض التباهي وصولاً للزواج غير المبني
على التفاهم والانسجام ما يخلق الفشل وعدم الاعتراف بهذا الفشل وانتشار ضرب النساء أو الافراط
في البحث عن الجنس الاخر بطريقة مخجلة .

إن الاحزاب السياسية في المجتمع العربي شكلية ، سلوكية ، تسويقية ، وتقريباً فان العائلة هي نواة
التنظيم الاجتماعي ما يجعل الانسان عضو في عائلة أكثر منه فرد مستقل لدرجة تكمل حد نكران
الذات .

حركات اللاعنف الاسرائيلية ودورها

المجتمع العربي يختلف عن المجتمع الفلسطيني العربي ، لذلك ستختلف القراءة سلباً أو ايجابياً
، وحتى ان قراءة المثقف اليهودي الاسرائيلي للمجتمع العربي مبنية على خطئين ، اما الازدراء أو
التضخيم المبالغ فيه دون واقعية .

وقد كتب منحيم نلسون استاذ الادب العربي في الجامعة العبرية (وحكم الضفة الغربية فترة الحكم
الذاتي) في كتابه حول المجتمع والبنية السياسية في العالم العربي ، وقال عن المجتمع العربي (أوطان
لجماعات طائفية واثنية تعيش في حالة نزاع أو عزلة عن بعضها البعض ولا تعترف بسلطة خارج
سلطتها الذاتية وتنقصها مشاعر التعاطف مع الوطن القومي) .

اما الكاتب اليهودي موشيه موعز فقال عن المجتمع العربي (ان كل المسلمين كانوا منافسين
للمسيحيين وكل المسلمين كانوا ضد اليهود) على هذا الاساس أو غيره ، قامت علاقة متذبذبة بين
المثقفين العرب واليهود في فلسطين ، احياناً كثيرة كان دافع هذه العلاقة الهروب من العنف وغالباً ما
كان دينمو العلاقة ضعيفا ويستطيع مسلح واحد أن يوقفه باليد الواحدة .

ومع ذلك تواصلت حالة من المجاملاتية في هذه العلاقة السلمية ، تارة اخذت أشكال الدخول في حزب واحد مثل حزب راکاح الشيوعي وهو أول حزب مشترك وبعدها أحزاب أخرى داخل الخط الأخضر ، وبالمناسبة فان المجتمع الفلسطيني داخل الخط الاخضر لم يختلف عن المجتمع العربي في أماكن ، أخرى رغم مرور خمسين عاماً على عيشهم وسط الدولة العبرية وذلك بسبب أن المجتمع العبري مجتمع شوفيني يرفض السماح لاية جماعات أخرى أن تذوب فيه ، فهو مجتمع يرفض غير اليهودي بشكل مطلق على عكس المجتمع الاردني الذي تمكن خلال عشر سنوات من اذابة اكثر من ثلاثة ملايين فلسطيني في جنباته.

وإذا كان لا بد من التدقيق اكثر في تأثير تجربة اللاعنف الاسرائيلية على نظيرتها الفلسطينية فاننا سنقول أن هذا التأثير ظل ضئيلاً ، والسبب ضعف التجربة السلمية الاسرائيلية ، فالفلسطيني يرى في هؤلاء نخبة صغيرة وضيئلة لا تعبر عن تيار اسرائيلي جارف .

اما من الناحية الفنية فهم عجزوا ايضاً هن توفير مناخ بسيط لنجاح مسيرة بمعنى أن الجمهور الفلسطيني الذي يخرج بالالاف في مسيرة ” لا عنف ” ضد الجدار الفاصل وبمشاركة مئات النشطاء اليهود والاجانب ، لا يجد أن هذه المشاركة تستطيع حمايته من رصاص الجنود وقنابل الغاز ، وبالتالي أصبح علة الفلسطيني أن يدفع ثمناً غالياً وربما حياته في حال شارك في مسيرة ” لا عنف“ .

أمر اخر ، وايجابي هو وجود نخبة مثقفة جداً وواعية في اليسار اليهودي ، حظيت بعنصر الثبات في مواقفها مثل داعية السلام أوري افيري والذي لا يختلف فلسطينيان على احترامه وتقديره أو مثل يوسي بيلين ولطيف دوري .

ولكن بالمقابل فان تجربة شمعون بيريس ، من التجارب المرة والتي تسببت في اجهاض ”اللاعنف الفلسطيني ” واحراج قادة النضال السلمي ، ففي حين شغل شمعون بيريس هو وحزبه الذين تولوا حقيبة وزارة الحربية وايدوا احتلال الضفة وشرعوا الاغتيالات وتدمير الميناء البحري والاعتقال الاداري وقصف الطائرات للمخيمات ومصادرة الاراضي وهو ما وجه طعنة نجلاء الى ظهر المؤسسات اللاعنفية في أوساط المجتمع الفلسطيني وجعلها مادة للتندر وسط السكان ، الذين يهتمون مركز بيريس بانه يأخذ نصف أموال المشاريع السلمية من أوروبا بينما هو يؤيد الحرب والقتل .

مقارنة بين الانتفاضة الاولى والثانية

اختار الفلسطينيون أول ما اختاروا طريق اللاعنف ، وبغض النظر عن أسباب ذلك إلا أنهم عولوا كثيراً على مفهوم العدالة واعتمدوا على كونهم ضحايا واصحاب حق ، وان الاحتلال غير مشروع وفق قوانين البشرية .

ثم ظل الكفاح المسلح حكراً على مجموعات صغيرة طوال خمسين عاماً ، وحين قرر الفلسطينيون الخروج الى الشوارع للتظاهر في العام 1987 رد عليهم الاحتلال بالرصاص ولكنهم صمدوا سبع سنين وقدموا ستمائة وثلاثة وسبعين ضحية وفي تلك الفترة اعتقلت قوات الاحتلال أكثر من تسعين ألف مواطن مقابل مقتل ثمانين عسكرياً ومئة وثلاثة وسبعين اسرائيلياً .

ويقول المتوكل طه من الشعراء امثقفين الفلسطينيين الذين دخلوا سجون الاحتلال أن الانتفاضة الاولى كانت في جزء منها ضد الخطأ فينا وكان فيها تفوق من نوع ما رغم أنها ثورة المغلوب على أمره وسلاحها سلاح أضعف الايمان . اما عن أثرها على المجتمعات العربية فيقول أنها شكلت احدى مظاهر اللياقة العالية والحيوية التي تتمتع بها جماهير الامة العربية وتبرز للهفة الهائجة لشعوبها التواق للانعتاق من كل أشكال القمع والاذلال .

وبعد كل هذه السنوات التي مضت نلاحظ أن الانتفاضة الاولى غرست قيماً ومفاهيماً ثقافية في الشعب الفلسطيني وليس ضد الاحتلال وحسب ، واما وفي كل مرة يشعر فيها السكان أن صوتهم غير مسموع وشكواهم تلقى الاهمال مثل انقطاع التيار الكهربائي أو عدم وصولهم ماء الشرب أو ظلم حل بهم من السلطة التنفيذية أو اعتقال أحد رموزهم يلجأ الناس بسرعة للنزول الى الشوارع اغلاق الطرق بالحجارة والتهاتف ضد السلطة الفلسطينية حتى تستجاب مطالبهم ما يعني ان الانتفاضة الاولى لن تقتصر على محاربة الاحتلال دائماً كما قال المتوكل طه حاربت وتحارب الذل والظلم أيضاً .

والشعب الفلسطيني بغالبيته يعرف أنه يتعرض لمسح الهوية أو ” التهويد ” أو ” التعريب ” على يد دول عربية وبالتالي هو يحارب من أجل الذاكرة ، لمواجهة العدمية ومحاولات الاملاء ، وعرف الشعب الفلسطيني منذ البداية أن مسيرة أوسلو أقرب للهدنة منها للسلام ، وقد شكلت السلام الممكن حتى الان وليس السلام العادل ، ما جعلهم يحافظون ويخبئون جمرة الانتفاضة ويتناقلوها فيما بين

أجيالهم حتى اندلعت انتفاضة أو هبة 1996 فترة حفر رئيس الوزراء الاسرائيلي الليكودي بنيامين نتنياهو نفقاً تحت المسجد الاقصى، ولكن السياسين كانوا أكثر غباءاً من فهم الرسالة حينها فاستهتروا ببروفه 96 المسلحة وتعاملوا معها أنها مجرد خلل فني حين كانت هي منذ تلك اللحظة بداية تخزين الفلسطينيين للسلاح واقتناء الذخيرة بانتظار لحظة الانفجار.

ولا يختلف اثنان أن الانتفاضة الاولى فاجأت قيادة م.ت.ف في تونس ولكن لا يختلف اثنان على أن الانتفاضة الثانية كانت بقرار من ياسر عرفات وهو قرار لا يمكن التعامل معه سوى ” بالقدرية ” فعرفات وبعد أن وجد الرئيس الامريكي والعالم واسرائيل لا يقفون معه قرر أن يفتح قمقم المجهول وليكن ما يكون وهذا ما يحدث الان حيث انطلقت العمليات العنيفة وهزت العالم .

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد أكثر من ثلاثة الاف قتيل فلسطين والالف قتيل اسرائيل هل هذا يشكل اسوأ الاحتمالات ؟

الاجابة هنا بالنفي ، لان معظم الفلسطينيين أيدوا العمليات التفجيرية بسبب فقدانهم للأمل السياسي وما أن ينفتح الأفق حتى تتحول نفس النسبة لتأييد التفاوض . مع الاشارة الى أن المشاركين في العمل المسلح لم يشكلوا حتى الان نسبة 5% فقط من الشبان الفلسطينيين كما أن أجهزة أمن السلطة لم تشارك رسمياً في القتال.

وهنا لا بد من الاشارة الى أن الفلسطينيين وافقوا على ” المقامرة ” ببعض الانجازات التافهة الحياتية التي قدمتها لهم أوصلوا مقابل المجهول وهم وشبه من يحمل في جيبه اخر عشرة دولارات ويذهب لشراء ورقة يانصيب أملاً بالفوز بالجائزة الكبرى وهو اختار ذلك دون تردد لعدم وجود احتمال ثالث .

المسلم الفلسطيني حائر بين أسامة بن لادن ولاهاي

يتهم د. مبارك ، رائد اللاعنفي في فلسطين في نهاية الثمانينات ، يتهم غاندي بانه لم يولي كثير الاهتمام في العالم الاسلامي لأنه عارض قيام باكستان ، لذا فان العنف في الذهنية العربية هو مجرد الاستسلام لمن بحوزته القوة الأكبر .

وقبل أن يطرد عوض عن القدس كانت مبادرته الاولى هي محاولة ايجاد برنامج تربوي للاعنف في الاسلام وذهب عوض الى الهند والتقى مع قادة مسلمين امنوا باللاعنف ، ومعظمهم من المتصوفة ، وهو يقول أن المتصوفة في الاسلام يشبهون (الكويكرز) يعني الهزازين في المسيحية ، وفي بعض المناطق يعتبر المسلمون المتصوفة زنادقة لأنهم يصلون ويرقصون ويتصرفون وكأنهم على وحدة مع الله ، وأهل السنة والشيعة لا يقبلونهم على أنهم مسلمين حقيقيين .

والمتصوفة أولوا اللاعنف تفسير محاربة الشر الموجود في النفس ، لكن المجتمع العربي الاسلامي ليس متصوفاً ، بل أن غالبية من السنة ، وأهل السنة ينطبق عل الكثير منهم الموافقة على (حاكم ظالم أفضل من الفتنة) فهم يوافقون على المساومة بقبول الظلم على الاقتتال الداخلي حتى أن مفهوم الثورة لا ينتشر وسطهم بسرعة وليسوا مثل الشيعة الذين يرون في الجهاد تعويضاً نفسياً وتضحواً عن تقاعسهم في حماية السيد الحسين في كربلاء ويضربون أجسادهم بالجنائز لوماً وتأنياً على ذلك . الكثير من السنة ، اذا جاز التعبير ، يساومون خصمهم حتى اخر لحظة ، ويوافقون على الحلول الوسط ومثلهم في ذلك القيادة الفلسطينية فرغم أنهم يؤمنون بالثورة الا أنهم وبعد سنوات من انطلاق الثورة المعاصرة 1972 بدأوا ينحازون لقرارات الامم التسوية، ثم اعترفوا بها جهاراً وهذا حال الشعب ايضاً ، والمجتمع الفلسطيني السني لا يخجل من تبني المساومة في الحلول لان ثقافته قائمة على الحل الوسط بدءاً من القبلية ووصولاً الى لاهاي .

وحين وقع ياسر عرفات أوسلوا ” وأعطى اليهود ” 70% من أرض فلسطين التاريخية واعترف لاسحق رابين بان حيفا ويافا وعكا وصور وعسقلان واشدود هي مدن عبرية خرج الشعب الفلسطيني في الشوارع يحتفل وأطلقوا على ذلك اسم ” انتصار الثورة ” وفي أول انتخابات تشريعية فاز ياسر عرفات بأكثر من 87% من أصوات الشعب الفلسطيني ، في حين أن المجتمع العربي اليهودي رفض ذلك ، ولمجرد أن اسحق رابين وقع أوسلوا وان غزة مدينة فلسطينية حرض ضده المتطرفون وقال اليهودي المتطرف يجئال عمير باغتياه .

وفي شهر شباط 2004 ورغم كل ما يحدث رأينا أن الشعب الفلسطيني اختار التوجه الى محكمة لاهاي ولم يختار أسامة بن لادن ، وهي حالة نادرة من التناقض يصعب على الاجنبي فهمها في المجتمع الفلسطيني ، فانت ترى شاباً في مقتبل العمر يحمل حزاماً ناسفاً ويريد تفجير نفسه وسط

مدينة يهودية أو داخل مستوطنة ولكنك اذا سألته الحل السلمي أو أن يفجر نفسه سيختار الحل السلمي ، والدليل على أن هذا الجيل وافق على اتفاقية أوسلوا رغم تفاهتها والاف النواقص فيها والتزم الانضباط التام بعدم تنفيذ اية عمليات أو مظاهرات عنيفة ضد الاحتلال طوال سبع سنوات من أوسلوا . ويعتقد بان الشعب الفلسطيني سيحسم أمره في العام 2004 فاما أن يجدد ثقته في محكمة لاهاي والعدل الانساني الدولي واما أن يفقد اخر شموع الامل فلا يتبقى أمامه سوى طريقة الشيخ أسامة بن لادن ... وهو ينتظر النتيجة ليقرر.

ياسر عرفات وموقفه من النضال السلمي

رغم كاريزماتيه ، فان ياسر عرفات شخصية براغماتية تتأثر بسرعة ، فاذا تذكر غاندي يجب أن يكون مثله ، واذا تذكر نهرو يجب أن يكون مثله، واذا تذكر جيفارا ومادتسي تونغ وكاسترو ومثلهم يجب أن يكون مثلهم ، فهو يمثل التردد الواضح في نفسية المواطن الفلسطيني الذي هو في النهاية صاحب قضية يريد انهاؤها بنجاح . أحد المقربين من الرئيس عرفات قال أنه يجب أن يتشبه بجورج واشنطن ، ولكن من يتابع تصريحاته يعتقد أنه تأثر بصلاح الدين الايوبي، ولولا النهاية المحزنة والتراجيدية لكان تشبه بعمر المختار ... الا أن كل هذه التشبيهات صحيحة وفي نفس الوقت جميعها خاطئة فعرفات لا يشبه الا نفسه .

ادارة الرئيس بوش تعتبره اخر رموز الاتحاد السوفييتي ، فيما يعتبره الشيوعيون من تلاميذ سيد قطب ويعتبره العلمانيون متديناً، والمتدينون يعتبرونه علمانياً ، حماس تعتبره ليبرالياً وتل أبيب تعتبره متشدداً أصولياً في الدين .

وللحديث عن موقفه من اللاعنف ، وهذا هو موضوعنا اليوم ، فان عرفات لم يمنع بل شجع دوماً النضالات السلمية وفاخر بها في كل مكان وسارع لدعمها معنوياً ومالياً ولوجستياً . فقد احتضن تجربة مبارك عوض ويستعد في كل لحظة لعمل ذلك من جديد . تماماً مثلما يساند أية عمليات عنيفة ومستعد لاحتضانها كأعمال ثورية ، فهو ببساطة يبحث عن حل ومهما يكن شكل هذا الحل ، المهم عنده أن يصل الى نتيجة واحياناً يكثر من الحديث عن طول الصراع لانه لم يقرر بعد - رغم أن عمره تجاوز 75 عاماً - واجهة واحدة من واجهات الصراع ، وهذا ما يجعله في وضع أصعب مما عليه الشيخ

أحمد ياسين أو حسن نصر الله. فعرفات رفض الانصياع للشروط الامريكية ولكن لا ينسى أحد بأنه رفض كذلك التقارب مع ايران وشجب أسامة بن لادن.

وعرفات متدين، وعلماني، سلفي وتقدمي، ثوري ومسام، أصيل ومنفتح، غيبي ومستقبلي، تقليدي ومستحدث، مركزي وهامشي، صامد رافض وفي نفس الوقت قدرتي مستسلم متفائل ومتشائم، متقدم ومتراجع، مأساوي وهزلي، ببساطة أنه ابلغ تعبير عن الواقع العربي المعاصر لذلك نجد نجاحه وفشله، قدرته وضعفه، سلطوته وغيابه. هو الظاهر الخفي فينا، ولو يسمح لنا القول فان كل فلسطيني يحمل في صدره ياسر عرفات صغير، هو عربي مسلم، ولكنه فلسطيني مسيحي ثائر متمرد، وفي نفس الوقت يفاخر أنه ابن العشيرة والريح.

وعرفات من ناحية الحكم خلق تجربة فريدة قد تنجح في دعم المجتمع المدني وقد تحطمه لعشرات السنين للأمام، فهو من خلال اقامته السلطة الوطنية زرع الاحسان والرحمة بدل العدالة على أساس القانون ونشر قيم العقل في نفس السلة مع قيم القلب، قيم الشعور بالعار بدل العقاب والشعور بالذنب بدل المحاسبة، نشر قيم الطاعة وسط غابة من التمرد وقيم الفكر التوفيقي بدل نفاذ سلطة القانون.

ويعنى اخر لن يكتب التاريخ عن عرفات سوى أنه أبقى لابناء شعبه جميع الابواب مفتوحة، وترك لهم الاختيار في قاعدة البناء للاصلاح والانجح... وعرفات شخصية مسالمة بطبعه والدليل على ذلك أنه لم ينفذ أي حكم اعدام ولم يوقع على أحكام لهذه ضد أي معارض حتى لو أطلق النار ضد فتح وضد القيادة، فهو اعتمد اسلوب القلب الكبير الذي يضبط الشر أكثر مما تضبطه سلاسل السجن.

وعرفات متعايش ومسام، يستطيع أن يوفر المساحة لآخر ليعيش بجانبه بكل حرية أو ليتركه ويغادر الى مكان اخر، فرغم تدينه واسلاميته تعايش مع زوجته سهى المسيحية في غرفة واحدة.

حماس وموقفها من اللاعنف

رغم تسرع البعض في الحكم على حماس بانها لا تفكر سوى بالعنف فان هذا الأمر مرفوض من جانب البعض الاخر، وقد اراد المجتمع الفلسطيني ان يحاسب حماس على سلوكها معه وليس على قسوتها

في التعامل مع العدو الصهيوني .

وحماس على الصعيد البيت الداخلي ، انتهجت قبل استلامها الحكم في غزة اسلوب ” لا عنف ” مع خصومها ، ورغم الاعتداءات التي تعرضت لها والقساوة التي عاملتها فتح بها وزج أجهزة أمن السلطة لكوادرها وقادتها في السجون وقيام بعض قادة الاجهزة باهانتهم أو اجبارهم على حلق ذقونهم، الا أن حماس صبرت وخطت اسلوبا (سلميا) في التعامل مع القضايا الداخلية وهذا هو المهم عند المواطن الفلسطيني . لكنها ردت على قسوة الاجهزة الامنية بقسوة اكبر عشر مرات لاحقا حين استحكمت قبضتها على قطاع غزة .

ومن وجهة نظري فان تمسك حماس الشديد بالاساليب العنيفة ضد اسرائيل تفسيره النجاح الذي تحصده سياسياً وشعبياً واسلامياً وعربياً من وراء ذلك والدليل على ذلك أنها التزمت التزاماً صارماً بالهدنة ولم تتسرع في خرقها . وقد حاولت بعض اجنحتها انتهاج العنف في الملفات الداخلية لكن الغالبية رفضت الامر ما دفعها للتراجع بالتدريج عن ذلك . والحق يقال أن حماس لم تولد عام 1988 وهي تحمل هذه الصفات ، فقد عمدت في الايام الاولى الى استخدام العنف.

وبعد انقضاء الانتفاضة الاولى لم تشتهر حماس ولم تشكل خياراً بارزاً عند الشعب الفلسطيني ، ولكنها اشتهرت وذاع صيتها ليس ببرنامجها الداخلي الفلسطيني وانما بسبب عمليات المهندس يحيى عياش طالب الجامعة الذي شفى غليل المقهورين والمحرومين من ابناء الشعب الفلسطيني رداً على غرور وعنهجية جيش الاحتلال.

فكلما ازداد عنف الاحتلال ، بحث الشعب الفلسطيني عن اكثر الادوات ايلاًماً للرد عليه ، الرد على الوجود بالوجود ، ولكن وبعد أن وعدت اسرائيل بالانسحاب من مناطق فلسطينية عام 2000 فاصبحت حماس مطلباً شعبياً كما أصبح شارون مطلباً اسرائيلياً؟؟

وبغض النظر عن صلابه وقساوة الحركة في ضرب الاهداف الاسرائيلية الا أنها اتخذت طابعاً سلمياً وادعاً في التعامل مع قضايا الشعب الداخلية قبل ان تفوز بالانتخابات ، ويعود الفضل في تنورها وانفتاحها الى تجربة حزب الله والطريقة الفذة التي تدير منظمة حزب الله بها حياتها ، الى درجة أن المسلحين الفلسطينيين اعجبوا جداً بهذه الطريقة .

فحتى سنوات 1994 كان نشطاء حماس في سجون الاحتلال يرفضون استخدام جهاز التلفزيون في غرفهم باعتباره فتنة الا أنهم ذهلوا حين شاهدوا تجربة حزب الله في تلفزيون المنار وهذا مجرد مثال . ولا يمكن الحكم فقط على أساليب الصراع مع الاحتلال على هذه الحركة، فالاحتمالات أمامها مفتوحة ، واما أن تكون مثل تجربة الجزائر العنيفة أو لبنان الناجحة والديمقراطية أو أفغانستان المتخلفة والفقيرة أو الحركة الاسلامية في اسرائيل وهي حركة تقدمية في ادارة شؤون الجمهور . التجربة لم تنهي وما يفعله ”الاخوان المسلمون ” بعد الثورات العربية ، ولا سيما تجربة مصر والاردن يفتح حماس على درب جديد وتيارات قوية ستؤدي ان اجلا او عاجلا الى تحوّل كبير في طريقة تفكيرها وفي الية حكمها .